الفاضل[١]، ويرجح عليه ابن الأثير[٢]. وعمل تاريخاً لليمن وتاريخاً للنحاة. واختصر تاريخ ابن خَلِّكَان في جزء، وذيَّل عليه إلى زمانه. وضبط ألفاظ الشفاء لِعياض في جزء. وله (مطرب السمع في حديث أم زرع) وغير ذلك. وله اشتغال كبير بالفقه والأصول وفنون الأدب. وله اختصار الصحاح. وحُكيَ عن بعض معاصريه أنه قال: لا يعتمد عليه في الرواية، ومن شعره: [من الوافر]

تَجنَّبْ أن تذمَّ بِكَ الليالي ... وَحاول أنْ يذمَّ لكَ الزَّمانُ
ولَا تَحْفِلْ إذا كُمِّلْتَ ذاتاً ... أصبتَ العِزَّ أم حَصَلَ الهَوانُ

٢٢٥
(عبد الرَّحْمَن بن أحمد بن الحَسَن ابن عليّ البَهْكَليّ الضّمديّ ثم الصبيائيّ)[٣]

ولد سنة ١١٨٠[٤] ثمانين ومائة وألف تقريباً بصبيا، ونشأ بها وقرأ على والده وغيره من أهل صبيا. ثم رحل إلى صنعاء سنة (١٢٠٢) فأخذ عن أكابر علمائها كشيخنا السيد العلَّامة عبد القادر بن أحمد، والسيد العلَّامة عليّ بن عبد اللَّه الجلال، والسيد العلَّامة عبد اللَّه بن مُحمَّد الأمير، وشيخنا العلَّامة الحَسَن بن إسماعيل المغربي، وشيخنا السيد العلَّامة عبد اللَّه بن الحَسَن بن عليّ بن الحُسَيْن بن عليّ بن المُتوكِّل، والعلَّامة عليّ بن هادي عرهب وغير هؤلاء. وأخذ عنّي في فنون متعددة، واختصَّ بي اختصاصاً كاملاً، وسألني مسائل كثيرة فأحببت عليه بأجوبة مُطوَّلة ومختصرة. وعاد إلى وطنه وقد برع في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والتفسير والحديث في أقرب مدَّة لحسن فهمه وجودة تصوره وكمال إدراكه وقوة ذهنه. ثم ما زال بعد رجوعه إلى وطنه يكاتبني بالأشعار الرائقة فأجيب عليه

---

(١) هو عبدالرحيم بن علي بن السعيد اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: وزير، من أئمة الكتَّاب. ولد بعسقلان (بفلسطين)، وتوفي في القاهرة سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م. وكان من وزراء السلطان صلاح الدين ومقربيه، ولم يخدم بعده أحداً. (الأعلام: ٣/ ٣٤٦).

(٢) هو أبو الفتح، نصراللَّه بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني، الجزري، ضياء الدين: وزير، من العلماء الكتاب المترسلين. ولد في جزيرة ابن عمر، واتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وولي الوزارة للملك الأفضل ابنه، بدمشق. توفي سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م. (الأعلام: ٨/ ٣١).

(٣) ترجمته في: الأعلام: ٣/ ٢٩٨؛ نيل الوطر: ٢/ ٣٣؛ معجم المؤلفين: ٥/ ١١٧؛ إيضاح المكنون: ٢/ ٦٦٧.

(٤) في الأعلام، ومعجم المؤلفين: ولد سنة ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م، وتوفي سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

بمضمون ما يكتبه إليّ. وهو مع ذلك يتأسّف على مفارقتي وأتأسّف على مفارقته لما بيني وبينه من المودة الصادقة والمحبة الزائدة التي تفوق الوصف. بل قد لا يتفق مثلها بين الأخوين الشقيقين. وقد جرت بيني وبينه من المطارحات الأدبية نظماً ونثراً ما لا يتسع له إلَّا مجلد. وفيه فصاحة ورجاحة مع حسن تَودُّد ولطافة طبع وكرم أخلاق وملاحة محاضرة واستحضار لرائق الأشعار وفائق الأخبار، لا يمل جليسه لما جبل عليه من موافقة كل جليس وجلب خاطره بما يلائمه والوقوف على الحدِّ الذي يريده. ولهذا أحبته القلوب وانجذبت إليه الخواطر ورغب إليه كل أحد، فعاشر أهل صنعاء وعرف طباعهم واختلاف أوضاعهم وصار أخبر بهم من أحدهم، لا يخفى عليه من أحوالهم دقيق ولا جليل. ثم ارتحل إلى صنعاء رحلةً ثانية، وكنت إذ ذاك مشغولاً بالتدريس والتأليف والإفتاء، ولكنه قد جفاني جماعة من الذين لا يعرفون الحقائق لصدور اجتهادات منّي مخالفة لما ألفوه وعرفوه، وهذا دأبهم سلفاً عن خلف، لا يزالون يعادون من بلغ رتبة الاجتهاد وخالف ما دبُّوا عليه ودَرَجوا من مذاهب الآباء والأجداد. فوصل صاحب الترجمة في سنة (١٢٠٩) والمواحشة بيني وبين المذكورين زائدة ولهب نار الاختلاف صادعةٌ، فقرأ عليَّ في مختصر المنتهى وشرحه لعضد الدين، وحاشيته لِلسَّعْد، وقرأ عليَّ في الخرازية وشرحها في العروض. وما زال يُعادي أعدائي ويوادد أودَّائي، ويقوم في غيبتي مقام الأخ الحميم، ويتوجّع من أحوال أبناء الزمن وما جُبل عليه طلبة العلم في قطر اليمن. ثم وصل إلى صنعاء مرةً ثالثة في شهر رمضان سنة (١٢١١)، وكنت إذ ذاك قد امتحنت بقبول القضاء الأكبر بعد الإلزام به من مولانا خليفة العصر حفظه اللَّه، فاستقر المترجم له في صنعاء نحو نصف سنة يتصل بي في كلّ وقت، ويحضر في مواقف التدريس ومجالس المنادمة والتأنيس، ويطارحني بأدبياته، ويواصلني بفقره الفائقة وأبياته حتى ولَّاه مولانا الإمام حفظه اللَّه قضاء بيت الفقيه ابن عجيل بعد موت القاضي العلَّامة عبد الفتاح بن أحمد العواجي، وهو الآن قاضٍ هنالك. وقد باشره مباشرة حسنة بعفة ونزاهة وحرمة كاملة، وصدع بالحقّ بحسبِ الحال ومقدار ما تبلغ إليه الطاقة. وقد أجزته بكل ما يجوز لي روايته، وهو مشارك لي في السماع من أكابر شيوخي. وله قدرة على النظم والنثر، وملكة كاملة في جميع العلوم عقلاً ونقلاً ولا يقلد أحداً بل يجتهد برأيه. وهو حقيق بذلك. ولما وقف على أبيات لي من الحماسة رُضْتُ القريحةَ بها مرغباً في الرتبة الوسطى إذا أعجزت الغاية وهي: [من الطويل]

إذا أعـوزَ الـمـرءُ الـصُّـعـود إلـى الـتـي إلـيـهـا تَـنـاهَـى كـلُّ أَروع أَصْـيَـدِ[1]

(١) الأروع: الذكيُّ الفؤاد. الأصيد: المُتكبِّر المَزْهُوُّ بنفسه، أو كلُّ ذي حَوْلٍ وطَوْلٍ من ذوي السلطان.

فَمِنْ دُون تحليقِ النُّسورِ مَنازلٌ تروحُ بها رُقْشُ البزاةِ وتَغْتَدي[١]
وَدَعْ عَنْكَ أدْنَى مَسْرَح العزِّ إنَّه مَطارُ بُغاثِ الطّير عِنْدَ التَّبلُّدِ[٢]
فَهمُّ الفَتَى كُل الفَتَى غيرُ واقفٍ على الدُّونِ إنّ الدُّونَ غَيْرُ مُحَمَّدِ
وفي الغايةِ الوُسْطَى تَعلُّلُ مُغْرمٍ على الغاية القُصْوَى مَقام التَّفرُّدِ
أيا منزلاً منْ دُونِ مَضْربه السُّهَى ويا مقعداً مِنْ دُونهِ كلُّ مَقْعَدِ[٣]
أَرَى دُونَ مَرْقَى شَأوِكَ الموتَ واقفاً لِكُلّ الذي يَهْوَى لِقاكَ بِمَرْصَدِ[٤]

فقال هذه الأبيات التي هي السحر الحلال وقد غاب عني أولها: [من الطويل]

فَتًى لا وحَقّ اللَّه لَوْلَا قِيامِهِ بِبابِ العُلا والمَجْدُ لم يتَجدَّدِ
وأبلج ما مِنْ آلهِ وقَبيلِه على قلَّةِ السَّاداتِ مَنْ لم يُسوَّدِ[٥]
أخو هِمَّةٍ ما حاجبُ بنُ زُرارةٍ أخُوها ولا العالي يَزيد بن مَزْيَدِ[٦]
وذو سَلَفٍ ما فيهم مِنْ مُذمَّم لَئيم ولا في غَيْرِهم مِنْ مُحمَّدِ
وأيمن إنْ تَصْدِمْ به الفَقْرَ يَنْقَلِبْ غَنيّاً وإنْ تَصْدِمْ به النَّحْسَ تَسْعَدِ

ووقف على أبيات لي من ذلك الطراز الأول نظمتها لقصد امتحان الفكر، وهي: [من الطويل]

وَلي سَلَفٌ فوقَ المجرَّةِ خَيَّموا سُرادقِهم مِنْ دُونهِ كلّ كَوْكَبِ[٧]

---

(١) الرُّقْشَةُ: لون فيه نقوش، أو اختلاط الألوان، من كدرة وسواد ونحوهما، وقد رَقش رَقَشاً، وَرُقْشَةً: كان به رُقْشَة، فهو أرقش، وهي رقشاء، والجمع: رُقْشٌ. البزاة: جمع بازٍ: جنس من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم.

(٢) البُغاثُ: طائر أبغث اللون (فيه بقع سود وبيض)، أصغر من الرخم، بطيء الطيران.

(٣) السُّهَى: كوكب صغير خفيُّ الضوء، في بنات نعشٍ الكبرى، أو الصغرى.

(٤) المَرْقَى: الرُّقِيُّ، أو موضعه، والجمع: مَراقٍ، والمرقاة: وسيلة الرُّقِيِّ أو آلته، أو موضعه. المرصد: طريق الرصد والإرتقاب، أو موضعه.

(٥) الأَبلج: الواضح الجبين. يُسَوَّدُ: يُرأَّسُ.

(٦) حاجب بن زرارة: سيد بني دارم من تميم في الجاهلية، واشتهر بوفادته على كسرى الأول أنوشروان في شأن مراعي بني تميم على ضفاف الفرات. ويروى أنه أدرك الإسلام، وأسلم. (الأعلام: ٢/ ١٥٣؛ تاريخ الأدب العربي، فروخ: ١/ ١٧٤).
يزيد بن مزيد: أمير شيباني، من القادة الشجعان، كان والياً بأرمينية وأذربيجان، وانتدبه هارون الرشيد لقتال الوليد بن طريف الشيباني زعيم الخوارج في عصره. توفي سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م، واشتهر بشجاعته وكرمه. (الأعلام: ٨/ ١٨٨).

(٧) المَجرَّة: مجموعة كبيرة من النجوم، تركّزت حتى تراءت من الأرض كوشاح أبيض يعترض في السماء. السُّرادق: الفسطاط، ونحوه.

رَقـوا فـي مَـراقـي الـعـزِّ شـأواً مُـمـنَّـعـاً ... وَذادوا الوَرَى عَنْهُ بخطبِ المِشْطَبِ[١]
فـمـا مِـنـهُـم فـي قـومـهِ غـيـر سَـيِّـدٍ ... يَروحُ ويغدو وهو بالمَجْدِ مُحتبي[٢]
ومـا بـي عـنْ أوسـاطِـهـم مِـنْ تـخـلُّـفٍ ... ولا ركـبـوا فـي مَـجْـدِهـم غـيـر مَـرْكـبـي
وَلـكـنّـهـا الأيـامُ يَـلـبـسُـهـا الـفَـتَـى ... عـلـى قَـدَرٍ مـن غـالـبٍ أو مُـغـلّـبِ
وإنّـي امْـرُؤٌ أمـا نُـجَـاري فـخـالـصٌ ... وأمـا فَـعـالـي فـاسـأل الـدَّهْـرَ واكْـتُـبِ[٣]
ولـسـتُ بِـلـبَّـاسٍ لِـثَـوْبِ مُـزوّرٍ ... وَلـكـنَّ ضَـوْءَ الـشَّـمـسِ غَـيْـرُ مُـحـجَّـبِ
وإنَّ فـتًـى يَـغْـشَـى الـدنـايـا وبَـيْـتُـه ... عـلـى قِـمّـةِ الـعَـلْـيـا فـتًـى غـيـرُ مُـعـتـبِ
فـمـا الـمـرءُ إلَّا مَـنْ يَـنُـوءُ بِـنَـفْـسِـهِ ... إلـى مـنـزلٍ فـوقَ الـسَّـمـاءِ مُـطـنَّـبِ[٤]
وَلا خَيْرَ في خَفْضٍ من العيشِ دُونَهُ ... تَـجـرُّعُ كـأسِ الـذُّلِّ مِـنْ أيّ مَـشْـرَبِ

فقال عافاه ذو الجلال: [من الطويل]

فَـديـتُـكَ يـا مَـنْ ألـبـسَ الـدهـر أدرعـاً ... بِنَظْمٍ يروعُ الجَيْشَ عَنْ كُلِّ مَطْلَبِ[٥]
نَـمـاكَ الأولـى خُـطّـتْ أسِـنَّـةُ ذَبْـلِـهِـمْ ... سُـطـوراً بـمُـحْـمَـرِّ النَّـجـيـعِ الـمُـتْـرَبِ[٦]
خُـطـوبٌ إذا جُـرْدُ الـسَّـلاهِـب أُغـمِـدَتْ ... حِـفَـاظـهـم أكـرم بِـهِـمْ خـيـر مِـقْـنَـبِ[٧]
إذا الـنـقـعُ غـطَّـى آيـة الـشَّـمْـسِ أطـلـعـتْ ... أسِـنَّـتُـهـمْ شُـهـبـاً عـلـى كـلّ أشْـهَـبِ[٨]

وكان الأولى بالمقام ما دار بيني وبينه من الأشعار الرقيقة والمكاتبات التي دخلت إلى معاهد اللطافة من كل طريقة، ولكن العذر أنه لم يحضر حال تحرير الترجمة غير هذا. وأما الرسائل والمسائل التي أجبت بها على سؤالاته فهي كثيرة

---

(١) الشأو: الأمد، أو الغاية. مُمَنَّعٌ: مَحْمِيٌّ. ذادوا: دفعوا وطردوا. المشطب: السيف فيه شُطَب، وهي خطوطٌ تتراءى في متنه.

(٢) احتبى الرجل: جلس على أليتيه وضمَّ فخديه وساقيه إلى بطنه وذراعيه ليستند، واحتبى بالثوب: أداره على ساقيه وظهره وهو جالس على نحو ما سبق ليستند.

(٣) النجار: الأصلُ والحَسَبُ.

(٤) ناء الرجل: نهض بحمله. المُطنب: المشدود بالطُّنب، وهو الحبل.

(٥) يروع: يخيف.

(٦) نماك: غَذَّاكَ وربَّاك وتَعهَّدك. الذَّبْلُ: الرماح الدقيقة، الواحد: ذابلٌ. النجيع: دم الجوف خاصَّةً. المُتْرَبُ: الممزوج بالتراب.

(٧) السَّلاهب: الخيل الطويلة الماضية في عدوها، الواحد: سِلْهِب. المِقْنَبُ: جماعة من الخيل والفرسان دون المائة تجتمع للغارة.

(٨) النَّقْعُ: غُبار المعارك. الشُّهب: الدراري من الكواكب، لشدة لمعانها.

جدّاً، موجودٌ أكثرها في مجموع رسائلي[١]، وإذ قد تعرضنا لذكر بعض مناقب هذا الفاضل فلنذكر ههنا بعض قرابته الذين بلغتنا أخبارهم بأخصر عبارة وأوجز إشارة. فمنهم والده العلَّامة المحقق:

(أحمدُ بن الحَسَن قاضي صبيا)

هو من أكابر العلماء الجامعين بين علم العربية والأصول والحديث والتفسير والفقه. وله رسائل ومسائل وأشعار أنيقة. وقد وصل إلى صنعاء وأنا في أوائل أيام الطلب واجتمعت به في موقفين، فرأيته من أحسن الناس مذاكرةً وأملحهم محاضرةً مع ظرافة ولطافة وجودة تعبير ودقة ذهن وقوة فهم. وقد دارت بيني وبينه مكاتبة متضمنة لمشاعرة ومذاكرة. ولم يحضر لي الآن منها شيء. ولعلّه قد قارب الستين من عمره حال تحرير هذه الأحرف. ومنهم أخوه عمّ صاحب الترجمة:

(عبد الرَّحْمَن بن الحَسَن البهكلي)

قاضي الأشراف بأبي عريش وسائر جهاته، وهو من أكابر العلماء. له يد طولى في علوم الاجتهاد، وعنده من التحقيق والتدقيق ما يقصر عن البلوغ إليه كثير من علماء العصر. وقد كتب إليّ بمسائل تعرض في جهاته، وأجبت عنها بأجوبة لعلها لديه. وهو الآن حيّ[٢] طوّل اللَّه مدته، وهو أكبر من أخيه أحمد المذكور قبله. ومنهم أخو صاحب الترجمة:

(إسْمَاعيل بن أحْمَد)

وصل إلى صنعاء لعلَّ ذلك في سنة (١٢١٥)، وبقي بها نحو عامين. وقد كان شرع يقرأ على الشيوخ في العلوم الدينية، ثم بدا له الاشتغال بعلم الفلسفة فلم يظفر منها بطائل سوى تضييع الوقت، وبطلان السعي، وذهاب هجرته سُدًى. ومنهم أخو صاحب الترجمة:

(الحَسَنُ بن أحْمَد)

وهو أصغر من الذي قبله، وصل إلى صنعاء سنة (١٢١٨) طالباً للعلم بجدٍّ وجهدٍ وعقلٍ وسكونٍ وجودة تصور وقوة إدراك. وهو الآن يأخذ عن أعيان مشايخ

---

(١) ومن مصنفات صاحب الترجمة: «تيسير اليسرى بشرح المجتبى من السنن الكبرى» للنسائي ـ سبعة مجلدات، و«الثقات بمعرفة طبقات رجال الأمهات»، و«الأفاويق بتراجم البخاري والتعاليق»، و«نفح العود بذكر دولة الشريف حمود»، وغيرها.

(٢) قيل: توفي سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م.